

الكونت تولستوي الروسي

(تابع ما قبله)

اثبتنا في الجزئين السابقين وصف الحالة التي يرى فيها الكونت تولستوي في مصيفه حيث يقضي نصف السنة مع الفلاحين يشاركهم في اعمالهم ويثبت اقواله بافعالهم . ونحن مشغولون الآن وصف الحالة التي يرى فيها في داره بمدينة موسكو حيث يقضي النصف الآخر من السنة اي فصل الشتاء يقابل الزوار ويشرح لهم آراءه ويراجع كتبه التي ألفها وبتفحصها وبقراءه مسودات بعضها . زاره الكاتب لويج الانكليزي منذ سنتين في مدينة موسكو وكتب عن هذه الزيارة ما ملخصه قال

ان كل ما كتبت عن تولستوي حتى الآن كتب عنه وهو في مصيفه يسنايا بوليانا ولم يكتب عنه شيء وهو في داره بموسكو لان الرجل الذي تراه في موسكو ليس تولستوي نفسه بل ظله ترى فيها الرجل النظري لا الرجل العملي فلا تفهم حقيقة آرائه وتعاليمه الا في مصيفه حيث يقرب العلم بالعمل والقول بالفعل . والناس في الغالب قوالون لا فعالون فاذا رأيت رجلاً فعلاً يفعل كما يقول ويعمل كما يعلم فاعلم انه من النوادر التي يتوق المرء الى معرفتها ولذلك كثر قصائد تولستوي الى مصيفه ووصفهم اياه في حيث يرويه يفلح الارض ويحصد الغلال ويربي المواشي ويصنع الاحذية ويعلم الاولاد واما تولستوي النظري الذي يسطر آراءه في كتبه ويصححها وبتفحصها فقلما يعرفون من امره شيئاً وهو يقيم في موسكو فصل الشتاء كله كما تقدم ولكن كأنه ليس من اهلها حتى رجال العلم والفضل فيها لا يعرفون من امره كثيراً . افت فيها شهراً ولم اسمع من اختياره ما يشفي الغليل فكان البعض ينسب اليه اموراً في حد الغلو ويقول غيرهم ان الحكومة الروسية عازمة على نفيه قريباً ويقول آخرون بل ان ولاة الامر راضون عنه لانه يقاوم آراء الماديين الشائفة بين تلامذة المدارس

والظاهر ان اهل بيته لا يدعون الناس يقابلونه الا من ندر منهم لعلمهم انهم اذا اباحوا لكل احد ان يدخل ويراه ضاع وقتهم كله في مقابلة الزوار لكن للاجانب امتياز حيث كانوا لقلته عددهم . وقد بلغني ان الكونت يرحب بالانكليز خاصة ولعل سبب ذلك قلة من يراه منهم فسح لي بزيارته حالما طلبتها . وبيته في اطراف المدينة على نحو نصف ساعة في وسطها وهو من البيوت القديمة يشبه من ظاهره بيوت التجار وحالما دخلته رأيت في داره كثيراً من

أردية ضباط الجيش معلقة فيها كأنهم كانوا زوّاراً في تلك الساعة . والبيت دوران وغرفة الكونت حيث يقيم ويستقبل زواره في الدور الاعلى لكن لا بد لمن يدخل اليها من ان يمر في كثير من غرف البيت لان الغرف تقع بعضها الى بعض لكي تتوزع الحرارة فيها على السواء . وقد رأيتها في زيارتي الاولى وزيارتي التالية غاصة بجمهور الزوّار من الطبقة العليا في المدينة وهم يلعبون ألعاباً مختلفة وتبدو عليهم سباه الهجة والخبور كأن زوجة الكونت واولاده لا يشاركون في أوائهم بل يعيشون مثل سائر الناس الذين من طبقتهم . وفي هذه الغرف من القاش والرياش ما في بيوت الطبقة العليا من الروسيين فكان تولستوي يحلل اقتناء هذه الحطام ولو كان لا يشارك في استعمالها . ووصلت الى غرفته فوجدتها صغيرة فيها اثاث بسيط ولكن لا الى الدرجة القصوى . فيها خزانة للكتب ومقعد وكراسي وطاولتان عليها كتب وجرائد . غرفة رجل يطلب الراحة ويزدري الفخفة لكنها تجالف سائر الغرف التي مرت فيها مخالفة كبيرة فكان غرفته مثله واما بيته فمثل العالم الذي يعيش فيه . عالم حقيق لا يتكبر ولا يستطيع الانقطاع عنه بل لا بد له من السير فيه كما لا بد له من المرور في غرف بيته قبل الوصول الى غرفته وبذلك امتاز على كل المعلمين لانه وفق بين الآراء الفلسفية والمصالح المادية او لم يدع الواحدة منها تالشي الاخرى

ومنظرة ينطبق على ذلك فانه منظر رجل حكيم كبير العقل ولكنه ليس منظر رجل متخيل متفلس . رأته بقميص الفلاحين كما رآه غيري في مصيفه ولكن لا شيء من المشابهة بينه وبين فلاحى الروس فهو مبتدل القامة عريض الانف واسع الخجرين غليظ النم واسع الجبين صغير العينين غائرها تلالاً عيناؤه تحت حاجبين كشين تدل ملامحه على انه حاد الطبع فيه شيء من دم التترولهذب لحيشة وشاربيه الظهر وجهه مثل وجوه ضباط القوازي لا مثل وجوه الفلاحين الودعاء

لما دخلت غرفته لم يكن فيها ثم جاء مسرعاً بعد بضع دقائق ومعه نسخة من المجلة البيضاء الفرنسية واوراق كثيرة تحت ابطيه فجلس في كرسي كبير وشرع يذم قصة كانت يقرأها حاسباً اني قرأتها قبله . وهو يحسن التكلم بالانكليزية لكن لهجة فيها روسية ثم أخذ يسألني عن غرضي من زيارة روسيا ولما وجد اني اتكلم الروسية لم يعد يكلمني الا بها وكلامه فيها بسيط فصيح جداً خال من التصنع يلجأ بالتكلمات الادبية والامثال ويميل فيه الى لهجة الفلاحين حتى اذا عرض ذكر المظالم والمغارم صعد الدم الى وجهه واحتد في كلامه كأنه خلق ليحارب الظلم والبطل ويدافع عن العدل والحق . وهو مسموح لا يعارض من يخالفه

في الرأي ولكنه غير لا يحتمل المقاومة والمعارضة ولا سيما اذا عارضه احد في المبادئ العامة .
 واذا تكلم عن شيء يكرهه تكلم عنه بالاحتقار والازدراء
 وقد علمت من امره انه ينهض باكراً ويستغل في كتيبه ودفاتره ولا يقابل زواره الا
 في المساء ويعاملهم كلهم معاملة واحدة اقرب كانوا او اباعد اغنياء او فقراء . وهو جلود على
 الشغل ينقع ما يكتبه مراراً ثم ينقع مسوداته كثيراً حتى يفضل الطباعون ترتيب حروفها ثانية
 علي تصحيحها ويساعده اولاده في نسخ ما يكتبه . وهو لا يحتمل ان ينتقد احد آراءه في
 كلياتها ولكنه يسر بانقاد الجزئيات ويرغب فيه

ولما زرته المرة الثانية رأيتُه وقد اتم كتابة كتاب الى البعض من اعضاء مجلس النواب
 الاسوجي وكانوا قد كتبوا يسألونه عن رأيه في دعوة القيصر الى عقد مؤتمر السلم فاجابهم ان
 ما عرضه القيصر باطل ولا يمكن العمل به لان الحكومات الحاضرة لا تستطيع ان تبطل
 الحروب ولا ان تخفف وبلايتها . ثم قرأ لي جوابه وكان ككلمة فصلاً منه يقف ويقول لي
 افهمت مرادي حتى أتني على آخره فقال هذا ما ارتأيت في مؤتمر القيصر فانه كله سخافة ورياء
 لا غير . ولا تستطيع الحكومات الحاضرة ان تبطل الحروب ولا تريد ابطالها لان الحروب
 ليست عرضاً طارئاً عليها بل هي جزء جوهري من قوامها لازم لوجودها فاذا قلت ان هذا
 المؤتمر رياء برياء لا اعني ان الحكومات التي اشارت به واشتركت فيه قصدت ان ترأى قصداً
 ولو كان عملها رياء . اذا قلت انك عازم على تغيير شيء لا يغير ما لم تغير طبعك وانت غير
 عازم ان تغير طبعك فانت مراد . فاقترح القيصر رياء وقبول حكومات اوربا بديلاً وامنهم من
 يعتقد نجاحه وكان الحكومات تريد ان تخفي اعراض دائها لكي تحمّل اذهان شعوبها عن العلاج
 الثاني لكنها لا تفلح في ذلك ولا يستطيع هذا المؤتمر ان يقلل الحروب ولا ان يقلل مضارها .
 اذا تسلح رجلان وكان كل منهما ينتقد ان مصلحة الآخر ضد مصلحه فلا يأمن احدهما
 الآخر ولا يركن اليه ولا يصدق كلامه اذا عاهده على السلم لانه لو صدق كل منهما الآخر
 لما بقي داعٍ للسلاح . واذا استطاعت الممالك ان تعيش بالسلم من غير ان يكون عند كل منها
 مليون جندي تستطيع ان تعيش بالسلم من غير ان يكون عند كل منها الف جندي لان
 القلة لا تمنع الحروب اذا كانت الكثرة لا تمنعها . لما حوصرت سفستوبول رأى البرنس اورسوف
 ان احد الحصون أخذ واسترد مراراً فقال للقائد العام دعنا نطلب من الاعداء ان يعينوا
 رجلاً منهم يلعب رجلاً منا بالشطرنج فن غلب كان الحصن له . ولا شبهة في ان القائد
 ضحك من هذا الاقتراح لانه يعلم ان الفريق الذي يخسر الحصن بالشطرنج لا يكف عن

استرجاعه بالسلاح اذا استطاع . والناس يفصلون خصوماتهم يقتل بعضهم بعضاً لا يلبس الشترنج لان الغالب هو الذي يتجن في خصومه ويضطرهم الى الكف عن مقاومتهم . والمغلوب يتربص بغالبه الفرص حتى اذا استقوى واستضعف خصمه عاد الى الاخذ بالثار . وقد يضع المؤتمر قواعد وقوانين لمنع الحروب ولكن هذه القواعد والقوانين لا تمنع دولة من ان تدعي ان خصمها هو الذي نكث العهد اولاً

وقلت له ان الحكومات قد لا تمنع الحروب ولكنها تفضل مضارها . فقال هذا وهم ورياء من الذين يدعونهم ومصالحهم قائمة بابقاء الحروب وقد قلت انه رياء لان الغرض منه اقناع الناس بان مضار الحرب يمكن ان تقل كثيراً فانك ترى الحكومات تمنع استعمال الرصاص المنفجر لانه يجرح ولا يقتل حالاً ولكنها لا تمنع استعمال الرصاص العادي مع انه كثيراً ما يجرح ويؤلم والسبب الحقيقي لمنع الرصاص المنفجر انه لا يقتل حالاً فلا يبي بغرضهم وهو التثكيل بعدوم حتى يضطر الى التسليم والخضوع . ولذلك لا اريد ان ينبج هذا المؤتمر ولا انا معتقد بنجاحه وان نجح فيكون منه ضرر لانه يحول افكار الناس عن الحل الحقيقي الذي يمكن العمل به في كل مكان وهو ان يخضع كل انسان لضميره والضمير يقول له ان قتل الناس غير جائز فاذا امتنع كل انسان بذلك بطلت الحروب من نفسها ونجرت الحكومات عن اثارها

فقلت له ولكن هب ان امة من الامم اقتنعت بصحة رأيك وعملت به فلا ينتظر ان امم العالم كلها ترى رأيا حينئذ وتعمل مثلها وهب ان امة من هذه الامم اعندت على الامة الاولى وحملت عليها افلا تضطر الامة الاولى الى حمل السلاح للدفاع عن نفسها

فقال لا لانه يجب عليها ان لا تقتل غيرها والواجب واجب كيفما كانت الحال وكنت اقرا كتاباً لاحد الروسيين اقام مؤلته الادلة الكثيرة على ان الحرب تجارة خاسرة ولا بد من ان تبطلها الدول لهذا السبب . وبلغني ان هذا الكتاب اثر في القيصر تأثيراً شديداً وانه هو الذي دعاه الى اقتراح عقد المؤتمر . وليس في الكتاب دليل واحد ادبي على وجوب ابطال الحرب بل كل ما فيه ادلة عملية على ان الحرب تجارة او مضاربة لم يعد منها ربح بسبب الاحوال الحاضرة فصار تركها واجباً من هذا القبيل . فسألت الكونت عن رأيه في هذا الكتاب وكنت احسب انه يلوم المؤلف ويقول انه اخطأ خطأ فظيماً لانه لم يندم الحرب من باب ادبي ويطلب منعها لانها غير جائزة بالذات اما هو فلم يقل ذلك بل قال انه كتاب كثير النكاهة والفائدة ولا بد من ان ينفع كثيراً اذا قرأه كل احد . وهذه اول مرة تجلّي لي فيها تولستوي كرجل نظري وعملي في وقت واحد . ثم اتضح لي ان

نظرة الى الكليات يختلف عن نظره الى الجزئيات فاذا نظر الى الامور الكلية التفت الى
المبديء الاصلية ولم يجد عنها شعرة ولا قبل فيها معارضةً واما اذا نظر الى الجزئيات ناهل
فيها وتسامح وراعي احوال الزمان والمكان

واقاض الكاتب بعد ذلك في الكلام على آراء تولستوي الدينية وتفضيله الروسيين على
غيرهم لانهم لا يزالون على السذاجة الفطرية البعيدة عن مساوىء العمران ولما ذكر له الكاتب
مزايا العمران الاوربي وما فيه من الروابط التي تكفل للناس راحتهم ورفاهتهم قال له ان هذا
العمران لا يصلح لروسيا ومن اكبر الخطا ان نحاول النسخ على منواله. ومن رأي الكاتب ان
تأثير تولستوي في روسيا قليل جداً الآن

وزاره المستر اندرو هويت العالم الشهير سفير اميركا في بطرس برج وفي المانيا وذاكرة
في مواضع مختلفة وبني يتردد عليه الى ان عجم عودة وعرف خلة وخمروه وكتب عنه الآن
مقالة مسبية في مجمة مكلور ومما عزاه اليه انه لا يحسب النساء اهلاً للقيام بالمهام السياسية
مطلقاً. وان من اكبر المشاكل الآن كثرة الاهتمام بامر النساء ومطالبهن. واعتراضه الاكبر
على المرأة انها لا تستطيع ان تصغي مصحتها لاجل غرض من الاعراض العامة النافعة. وقال
انه لا يعرف الا امرأتين او ثلاثاً من اللواتي ضمنن انفسهن لمصلحة عمومية. والمرأة لا تعمل
بمقتضى العقل غالباً بل تراها دائماً ميالة الى الخرافات والاهوام كالاعتقاد بالارواح والطب
المهوموناتي وما اشبه

وقال المستر هويت انه رأى تولستوي يختلف عن كل الرجال المشهورين الذين لقيهم
بافتقاره الشديد الى تموير الآراء الذي ينتج عن مقابلة كثيرين من بلدان مختلفة وموازنة
آرائهم بعضها ببعض. فان لكل امرء آراء ومذاهب خاصة به فاذا اقتصر على التفكير بها ولم
يقابلها بأراء غيره صارت في نفسه كالولد المدلل الذي لا يحتمل اقل مقاومة وصار يراها عين
الكال خالية من كل عيب. وختم المستر هويت مقالته بقوله

انما نرى هنا رجلاً نابغة يحقر العلوم كلها ويحث الناس على الرجوع الى الفطرة. يحرم
الزيجة وهو متزوج وعاش مع زوجته على اتم الوفاق وله ١٦ ولداً. لا يحسب اسكيلوس ودانتي
وشكسبير من نوابغ الشعراء لكنه يحسب ادين بالو من نوابغهم ولا يحسب ميخائيل انجلو وفائيل
من مشاهير اللحاتين والمصورين و يفضل عليهم اناساً خاملي الذكر. ولا يحسب بتهوفن وهندل
وموزارت وهيدن من كبار الموسيقيين و يفضل عليهم اناساً لا تعرف اسمائهم. ولكن هذه
السخائف وامثالها تنسى حالاً ويبقى من ذكر تولستوي ما امتاز به من سمو الافكار ونبالة المقاصد

هذا بقي منه على كرور الدهور وبه تستنير بلاد الروس ومنه تستفيد
 وكتب تولستوي حديثاً في مجلة اميركا الشمالية بصف اصول الشرور فقال ان الغنى
 لا يتال بالعناء والاجتهاد بل بالفش والخداع وها ترجمة كلامه
 ” ان الفلاح الذي يفلح ارض غيره ويبشع ضروريات الحياة بالثمن الذي يُطَلَب منه
 لا يستطيع ابداً ان يصير غنياً . مهما كان مجتهداً مقتصداً . واما الرجل السريف المبتدّر الذي
 يتسرّب في مناصب الحكومة او يتال الخظوى لدى اربابها او يصير مريباً او صاحب معلم
 او بنك او تاجر خمر او يقتني بيتاً للومسات فهذا يتال الغنى من اقرب طريق وامثلة ذلك
 كثيرة حولنا “

ثم قال ” على م نرى الرجال الاقوياء الماهرين المتعادين الغضب هم الفريق الاكبر من بني
 البشر يبخسون لاناس ضعفاء الابدان لرجال اخنث او شيوخ عجزة . لماذا نرى الاقوياء
 يتعبون لهؤلاء الضعفاء . لان الضعفاء قد امتلكوا الارض وخيراتهما والمعامل وما فيها . والحق
 الذي يمتلك به الغني الارض ويجني ثمار ما يتعب به غيره لا ينطبق على مبدأ من مبادئ
 العدل والانصاف وما هو الا اغتصاب تؤيده القوة الحربية
 وقد صار العمال آلات لتهر اخوانهم بصيرورتهم جنوداً للحكومة وآلات في يدها للقتل
 والفتك . وما دام الناس يجللون قتل غيرهم تبق الجنود في يد رجال الحكومة اي في يد فريق
 صغير من الناس ويبقى هذا الفريق مستعينا بهم على ابتزاز الاموال من الذين يكتبونها بعرق
 جبينهم . وشراً من ذلك ان رجال الحكومة يفسدون جمهور الناس ولولا ذلك ما استطاعوا
 التسلط عليهم وابتزاز اموالهم . واصل كل الشرور ما رسخ في الازهان من ان تجنيد الجنود
 لقتل الناس ليس اثمًا بل هو شرف كبير وعمل نبيل لذلك لا تزول الشرور من الدنيا بتغيير
 الفلاحين ورفع الضرائب وتكثير الآلات والادوات ولا بابطال الحكومات الخافرة بل
 بابطال كل تعليم ديني يميز للناس ان يحملوا السلاح لقتل غيرهم “

وغني عن البيان ان اقوالاً مثل هذه لا يترك قائمها وناسرها لا سيما وان تكلامه وفقاً
 كبيراً في النفوس ولذلك حرمة المجمع المقدس في بلاد الروس لاعنفاده انه ضل عن سبيل
 الهدى . ولم يفظ هذا الحرم تولستوي لانه هو لا يبني صحة الدين بل يقول ان دعائه ضلوا عنه
 وعلموا الناس تعاليم منهم لا منه . واما زوجته فاغتازت من هذا الحرم وكثبت الى رئيس
 المجمع المقدس تعترض على ما فعل وتلومه لوماً شديداً . واعتصب التلامذة وذهب خمس مئة
 منهم الى كنيسة فازان وطلبوا ان يُجرّموا مثله . ولذلك اُشيع الحرم بمنشور يقال فيه ان سبيل

الخلاص لا يزال مفتوحاً امامه اذا تاب ورجع عن ضلاله
 اما هو فكتب كتاباً مسهباً الى القيصر يعترض فيه على نظام الحكومة الخاخر ويطلب
 مطالب كثيرة للاصلاح وهاك بعض فقراته
 اليكم نرفع خطابنا باولاة الامور من القيصر واعضاء مجلس الحكومة الاعلى والنظار الى
 اقارب القيصر اعمامه واخوانه وكل الذين يستطيعون ان يكلموه . اليكم نرفع خطابنا لا كاعداء
 بل كاخوان مرتبطين معنا ارتباطاً متيناً اردتم ذلك اولم تريدوه حتى اذا حلت بنا البلايا
 اصابكم شيء منها . ليس اللوم على الذين يتورون بل اللوم كله عليكم لانكم لا تفتشون الاعن
 راحتكم ورفاهتكم وقد كان الواجب عليكم ان تفتشوا عن سبب الثورة والشكوى وتزيلوه .
 والناس مسالمون بالطبع لا يطلبون الخصام والعداء بل يفضلون الوفاق والمسالمة فان كانوا قد
 ثاروا عليكم الآن وطلبوا الابقاع بكم فلا يكون ذلك الا لانهم وجدوكم مانعاً يمنع عنهم وعن
 الملايين من اخوانهم اعظم نفع يطلبه الانسان في هذه الدنيا وهو الحرية والعلم . وغاية ما
 يطلب منكم لكي لا يبقى سبيل لثورة العامة عليكم وهو نافع لكم ايضاً لاجل راحتكم وسلامتكم
 هذه الامور الطفيفة وهي

اولاً . المساواة بين الفلاحين والعمال وغيرهم من اهل الطبقات العليا (في امور ذكرها
 بالتفصيل مثل الغاء القوانين التي تربط العمال باصحاب الاعمال واعفاء الفلاحين من الاموال
 الاميرية التي تأخرت على غيرهم ومن اخذ الجواز اذا ارادوا الانتقال من مكان الى آخر . ومن
 تقديم الخيل والعلائف لرجال الحكومة ولا سيما رجال البوليس ومن العقاب بالضرب)
 ثانياً . الغاء الحكومة العرفية التي تلجأون اليها آونةً بعد أخرى فتسلطون على الرعية اناساً
 ظالمين فاسقين سخاف العقول الخ

ثالثاً ازالة كل الموانع التي تمنع تعليم اولاد العامة لكي يتحرر جمهور الروسيين من ربقة
 الجهل . والجهل اكبر معين للحكومة على الاستبداد بهم
 رابعاً واخيراً اطلاق الحرية الدينية

والكتاب طويل وعلى كل بند من هذه البنود شرح مسهب فاجتزينا بما تقدم . ويظهر
 منه ان تولستوي اعتدل كثيراً فصار يحسب للحكومة حساباً كبيراً وينتظر منها نفعاً عميقاً اذا
 عملت بمشورته . وهذه المطالب التي طلبها معقولة كلها وان خلت منها مملكة الروس لا يخلو منها
 سواها من الممالك الاوربية . ولا بد من ان تنتفع بلاده نفعاً كبيراً باقواله وتحيي ذكره مثل
 ذكر اعظم المصلحين الذين اصلحوا شؤون الناس